التجديد الديني والنهضة الإسلامية

من جمال الدين الأفغاني إلى رشيد رضا (١٨٦٠–١٩٣٥)

(قراءة في الخطاب والسياق)

Religious Reform and Islamic Renaissance: From Jamal al-Din al-Afghani to Rashid Rida (١٨٦٠–١٩٣٥)

(A Reading of Discourse and Context)

م.م. عقيل محمد عبود محمد

INST. Aqeel Mohammed Aboud Mohammed

الإيميل:mra369939@gmail.com

استلام البحث: ٢٠٢٥/٧/١٩م.

نشر البحث: ٢٠٢٥/٩/٣٠م.

١٤٤٧هـ ٢٠٢٥م

الملخص

يسعى هذا البحث إلى تفكيك خطاب الإصلاح الديني عند ثلاثة من أبرز روّاد النهضة الإسلامية الحديثة: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ضمن المدى الزمني ١٨٦٠–١٩٣٥ وفي فضاء مصر وبلاد الشام. ينطلق الإشكال المركزي من سؤال: كيف وازن هذا الخطاب بين "العودة إلى الأصول" واستيعاب أدوات الحداثة في مواجهة الاستعمار والتخلّف؟ يعتمد البحث منهج تحليل الخطاب التاريخي مع قراءة سياقية للنصوص الصحافية والرسائل والخطب (العروة الوثقى والمنار وسواهما)، ويقارنه بإسهامات الدراسات الحديثة. يخلص البحث إلى أن هذا التيار قد صاغ معادلة مزدوجة: تنقية العقيدة والعودة إلى الكتاب والسنّة بفهم السلف، وفي الوقت نفسه تفعيل العقل والاجتهاد واستيعاب العلوم والمؤسسات الحديثة (الدستورية والتعليم والقضاء) بوصفها وسائلَ للنهوض. وتظهر الفوارق الدقيقة داخل المدرسة نفسها: نزعة وحدوية مقاومة للاستعمار لدى الأفغاني، وعقلانيةٌ مؤسِّسةٌ للتعليم والإدارة عند عبده، ورؤيةٌ سياسية تشريعية عند رضا بلغت ذروتها في تنظير "الخلافة أو الإمامة العظمى" وفتح باب الاجتهاد ونقد الجمود. كما يتتبّع البحث شبكات التلقي والتأثير التي امتدّت عبر العالم الإسلامي، ويقدّم تقويماً نقدياً لإسهام هذا الخطاب في تشكيل الفكر والحركات الإسلامية اللاحقة.

ABSTRACT

This study seeks to deconstruct the religious reform discourse of three of the most prominent pioneers of the modern Islamic renaissance: Jamal al-Din al-Afghani, Muhammad Abduh, and Muhammad Rashid Rida, within the period 1860–1935 and in the context of Egypt and the Levant. The central question arises from the question: How did this discourse balance a "return to origins" with the assimilation of modern tools in the face of colonialism and backwardness? The study adopts a historical discourse analysis approach with a contextual reading of journalistic texts, letters, and sermons (Al-Urwat al-Wuthqa, Al-Manar, and others), comparing it with the contributions of modern scholarship. The study concludes that this movement has formulated a dual equation: purifying the faith and returning to the Qur'an and Sunnah, as understood by the early Muslims, while simultaneously activating reason and ijtihad, and absorbing modern sciences and institutions (constitutional,

educational, and judicial) as means of advancement. Nuances within the school itself emerge: al-Afghani's anti-colonial, unitary tendency; Abduh's institutional rationality for education and administration; and Rida's political-legislative vision, culminating in the theorization of the "Caliphate or the Great Imamate," opening the door to ijtihad and criticizing stagnation. The research also traces the networks of reception and influence that extended across the Islamic world and offers a critical assessment of the contribution of this discourse to shaping subsequent Islamic thought and movements.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

شهد القرن التاسع عشر الميلادي تحولات جوهرية في العالم الإسلامي تمثّلت في احتكاك مباشر مع الغرب الاستعماري وتحديات الحداثة الناشئة. وفي قلب هذه التحولات برزت حركة إصلاحية جمعت بين الدعوة للعودة إلى أصول الإسلام من جهة، وتبنّي أدوات الحداثة من جهة أخرى، كسبيل لمواجهة الاستعمار والتخلّف. يتناول هذا البحث ثلاثيّة روّاد هذا التيار: جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، ثم خليفتهما الفكري محمد رشيد رضا. الإشكالية المحورية هي: كيف صاغ هؤلاء الروّاد خطابًا إصلاحيًّا يزاوج بين العودة إلى الأصول الإسلامية وتوظيف مفاهيم الحداثة لمقاومة الهيمنة الأجنبية ومعالجة واقع الانحطاط الداخلي؟[١]

ينتهج البحث منهج تحليل الخطاب التاريخي؛ فيقرأ نصوصًا أساسية لهؤلاء الروّاد في سياقاتها التاريخية. نعتمد بالأساس على مقالات صحيفة العروة الوثقى التي أصدرها الأفغاني وعبده، ومجلّة **المنار** التي حرّرها رشيد رضا، فضلًا عن خطبٍ ورسائل شخصية لهؤلاء المفكرين. نحلّل محتوى هذا الخطاب الإصلاحي، مستعينين بأدوات تحليل المضمون والسياق التاريخي لفهم مقاصده ودلالاته. وقد أتيحت مصادر أولية رقمية مثل أعداد **المنار** المحفوظة في الأرشيف، ورسائل الأفغاني وعبده المنشورة، مما سمح بقراءة مباشرة لأفكارهم ضمن ظروفها. كما نُحيل إلى دراسات ثانوية مرجعية تناولت فكر النهضة، أبرزها كتاب ألبرت حوراني «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩»،

(١) ينظر، حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ١–٣٤، ٦٧–١٠٤.

وعمل نيكي كدّي «استجابة إسلامية للإمبريالية»، وإلى أبحاث معاصرة عن شبكة تأثير **المنار** ورشيد رضا في العالم الإسلامي[١] .

بهذا المنهج، يجمع البحث بين تحليل الخطاب والمقاربة التاريخية: نفحص المفاهيم المفتاحية لدى الأفغاني وعبده ورشيد رضا – كالجامعة الإسلامية، والاجتهاد، والتربية، والخلافة – ونربطها بسياق التحديات السياسية والاجتماعية (كالاستعمار الأوروبي، وضعف الدولة العثمانية، وحركة التحديث). تعتمد الدراسة نظام الحواشي السفلية وفق الأسلوب الأكاديمي العربي الكلاسيكي، حيث يُشار إلى المصادر بأرقام متسلسلة مع توثيق مختصر (اسم المؤلف/الكتاب/الصفحة) أسفل كل فقرة، ثم تُستكمَل البيانات الببليوغرافية كاملة في قائمة المصادر النهائية .

المبحث الأول: سياقات التحدّي – الاستعمار والتحديث في القرن التاسع عشر

المطلب الاول: الاستعمار الأوروبي وهيمنة "الرجل المريض"

في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الدولة العثمانية – التي حَكمت معظم بلاد المشرق الإسلامي – ترزح تحت وطأة ما سُمّي لاحقًا بـ"أزمة الرجل المريض". أخذت القوى الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، روسيا وغيرها) تتوسع نفوذًا وإستعمارًا في أراضي الدولة الإسلامية مستغلّة ضعفها الداخلي. فمنذ حملة نابليون على مصر (١٧٩٨م) بدا جليًّا أنّ العالم الإسلامي دخل طور مواجهة حضارية مع أوروبا الحديثة المتفوقة علميًا وعسكريًا. وتصاعد هذا التحدّي مع مرور العقود؛ فبين عامي ١٨٧٥ و١٨٨٢ وقعت أحداث حاسمة دفعت بالعلاقة بين المشرق العربي وأوروبا إلى منعطف جديد. فقد أظهرت أزمة البلقان (١٨٧٥–١٨٧٨) ومعاهدة برلين (١٨٧٨م) عجز العثمانيين عن حماية أراضيهم دون تدخل القوى العظمى. ثم جاءت الهيمنة الاستعمارية المباشرة باحتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١م واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م، لتؤكد أن الإمبراطورية العثمانية فقدت زمام أمورها لصالح النفوذ الأوروبي. وفي هذه الأثناء كانت الجزائر قد وقعت تحت الاستعمار الفرنسي منذ ١٨٣٠م،

(١) ينظر، العروة الوثقى (١٨٨٤)؛ المنار (مجلدات متعددة)؛ حوراني، الفكر العربي، ص ١٠٣–١٦٠.

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع مرير: استلاب سياسي وعسكري أمام الغرب، يرافقه تفوّق علمي واقتصادي أوروبي مقابل تراجع حضاري داخلي[١] .

على الصعيد الداخلي، عانت المجتمعات الإسلامية من حالة من الركود والجمود بعد قرون من تقليد المُوروث دون تجديد يُذكر. فكانت البنى السياسية والاجتماعية تقليدية، والتعليم الديني متمسّكًا بأساليب قديمة تفتقر للعلوم الحديثة، مع انتشار بعض الخرافات والممارسات البدعية . ولعلّ سؤال النهضة بدأ يفرض نفسه بقوة: لماذا تأخّر المسلمون وتقدم غيرهم؟ وما السبيل للخروج من التخلف واستعادة الدور الحضاري؟ دفع هذا السؤال روّاد الفكر للبحث عن "تشخيص الداء ووصف الدواء"، أي تحديد أسباب الانحطاط الإسلامي واقتراح حلول النهضة[٢] .

المطلب الثاني: محاولات التحديث والإصلاح الأولى

لم تكن ردود الفعل الإسلامية تجاه تحديات الحداثة والاستعمار آنية أو مفاجئة، بل سبقتها إرهاصات مبكرة منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. قامت بعض الدول الإسلامية بمحاولات تحديث ذاتية سياسية؛ أبرزها حركة والي مصر محمد علي باشا (ت.١٨٤٩) لتحديث الجيش والإدارة والتعليم على النمط الأوروبي، وإصلاحات التنظيمات العثمانية (التنظيمات الخيرية ١٨٣٩–١٨٥٦م) التي هدفت إلى تحديث بنى الدولة والقانون بإلهام أوروبي. وفي تونس برز مشروع خير الدين التونسي الإصلاحي في ستينيات القرن التاسع عشر داعيًا إلى الأخذ بأسباب التمدّن الأوروبي مع الحفاظ على ثوابت الدولة الإسلامية. هذه المحاولات كانت تعبيرًا عن وعي بعض النخب بضرورة الإصلاح لتجنّب مصير السقوط الكامل بيد الاستعمار[٣] .

بالتوازي، نشأت نخبة فكرية جديدة من مثقفين وإداريين تأثروا بالمعارف الحديثة. بحلول عام ١٨٦٠م تقريبًا، تبلورت في المشرق حركة فكرية نهضوية قوامها موظفون وضباط ومعلمون أدركوا ضرورة إصلاح أحوال الإمبراطورية العثمانية واقتنعوا بأن الإصلاح لن يتم إلا بتبنّي بعض النظم الأوروبية الحديثة. اتسع انتشار فكرة الإصلاح بين فئات تعرضت لرياح التغيير: فالموظفون المتعلمون

(١) ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٥–٣٤، ٦٧–١٠١.
(٢) ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٦٧–١٠٤؛ حوراني، الفكر العربي، ص ١٣٠–١٣٤ (ملامح الأزمة الداخلية).
(٣) ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٦٧–١٠٢ (طهطاوي/خير الدين).

تعليماً حديثًا في إسطنبول والمقاطعات، وبعض حكام الولايات كإسماعيل باشا في مصر (تولى سنة ١٨٦٣م) ممن نال قسطًا من التربية الأوروبية، وشباب تونس بقيادة خير الدين التونسي (ت١٨٩٠)، وحتّى طلاب مدارس الإرساليات المسيحية في الشام الذين أسهموا بالترجمة والصحافة – كلّها كانت أطيافًا أخصبت فكرة النهضة ورسّختها. وبحلول الستينيات من القرن التاسع عشر تجسّدت هذه الفكرة في حركة فكرية نشطة انكبت قبل كل شيء على معالجة أسباب الانحطاط الداخلي والتأخر الحضاري[١].

المطلب الثالث: ملامح الإشكالية النهضوية

هكذا واجه روّاد النهضة الأوائل معضلة مزدوجة: من جهة ضغط خارجي متمثل بالاستعمار والتغلغل الثقافي الغربي، ومن جهة أخرى ضعف داخلي متمثل بالجمود الفكري والتفكك السياسي والاجتماعي. وقد أدرك هؤلاء أنّ الحل لن يكون بتبنّي الحداثة الغربية كليًّا والتنكر للماضي، ولا بالانكفاء على الماضي ورفض كل جديد، بل بمحاولة إيجاد صيغة تجمع الأصالة والمعاصرة. وشهد النصف الثاني للقرن التاسع عشر سجالات فكرية حادّة حول هذه الإشكالية: كيف يمكن للمسلمين الأخذ بأسباب التقدّم (كالعلوم والتقنيات ونظم الحكم الدستورية) دون فقدان هويتهم الثقافية والدينية؟ وهل كان سبب الانحطاط الدين الإسلامي ذاته أم تراكم قرون من سوء الفهم والتطبيق له؟ لقد مال المصلحون – موضوع بحثنا – إلى الرأي الثاني؛ أي أن الإسلام في جوهره دينٌ يحمل أسباب النهوض، لكن ما اعترى حضارة المسلمين من ضعف يعود إلى ابتعادهم عن حقيقة الدين الأولى وانغماسهم في الجمود والتحزب والتفرق. لذلك رفعوا شعار "العودة إلى الإسلام الصافي" الذي طبّقه السلف الصالح، مقرونًا بفتح باب الاجتهاد العقلي واستيعاب منجزات العصر الحديثة. وفيما يلي سنتناول بالتفصيل إسهامات أبرز شخصيتين أسستا خطاب الإصلاح الإسلامي الحديث: جمال الدين الأفغاني ت(١٨٧٩) ومحمد عبده ت (١٩٠٥)، لنرى كيف مهّدا السبيل لمن جاء بعدهما – وعلى رأسهم رشيد رضا – في بلورة تلك الصيغة الفكرية المركّبة[٢] .

---

(١)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٦٧–١٠١.

(٢)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١٠٣–١٦٠؛ كدّي، استجابة إسلامية للإمبريالية، ص ١–٢٠.

المبحث الثاني: الأفغاني وعبده – مفاهيم الإصلاح وسلطات العقل والنص

المطلب الأول: جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨–١٨٩٧) – وحدة الأمة ضد الاستعمار

يعدّ السيد جمال الدين الأفغاني رائد اليقظة الإسلامية في العصر الحديث بلا منازع. جسّد الأفغاني بفكره ونشاطه هموم الأمة الإسلامية في مواجهة الاستعمار والتخلف. انطلق في نقده لأحوال المسلمين من قناعة راسخة بأنّ الإسلام بريء من تهمة الجمود والانحطاط، وأن سبب ما لحق المسلمين من ضعف هو ابتعادهم عن جوهر دينهم الصحيح وانقسامهم السياسي والمذهبي. يرى الأفغاني أنّ المسلمين بعد عصور الازدهار الأولى تفرقوا إلى ممالك متنافسة وطوائف متناحرة، فتحوّل نظام الحكم من الخلافة الراشدة الجامعة إلى مُلكٍ عضوض موروث، وهو ما أدى إلى انحدارهم الحضاري. كما انتقد حالة التدين الشكلي التي سادت؛ إذ أصبح الدين لدى كثيرين طقوسًا جامدة وممارسات صوفية مبالغًا فيها بلا روح ولا هدى، وعجز "علماء الدين" عن فهم الشريعة فهمًا صحيحًا متجددًا فانصرفوا إلى بث روح الاستكانة والاعتماد على الخوارق والخرافات. في المقابل، شهد الغرب الأوروبي تقدّمًا هائلًا في العلوم والمعارف والتنظيم بفضل وحدة الكلمة والعزيمة والعلم والعمل. من ثَمَّ رأى الأفغاني أن النهضة تبدأ بتصحيح فهم الدين وتنقيته وإعادته إلى صفائه الأول، وبجمع شمل المسلمين سياسيًا ودينيًا في كيان واحد قوي[١] .

رفع الأفغاني لواء فكرة "الجامعة الإسلامية" بوصفها سبيلًا لمقاومة الاستعمار الغربي. دعا إلى اتحاد المسلمين على اختلاف أعراقهم تحت راية الإسلام الجامعة، معتقدًا أن الرابطة الدينية أقوى وأبقى من رابطة الجنس أو الوطن. وقد عبّر عن ذلك صراحة بقوله: «علمنا وعلم العقلاء أجمعين أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسيّة إلا في دينهم واعتقادهم»، فالمسلمون أمة واحدة تجمع التركي والعربي والفارسي والهندي والمصري والمغربي على أخوّة الدين، وهذه الوحدة هي سرّ قوتهم التاريخية. من هذا المنطلق حثّ الأفغاني المسلمين على الاعتصام بحبل الله جميعًا ونبذ الفرقة، وعلى الولاء للدين قبل أي ولاء آخر. ولم تكن دعوته للوحدة مجرد مثالية نظرية، بل سعى عمليًا لتحقيقها عبر التنظير لإحياء مركز الخلافة الإسلامية وتقويته في وجه التدخلات الأجنبية. أيّد الأفغاني خلافة إسلامية قوية (ممثلة آنذاك بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ت (١٩١٨) شرط أن تنهض بمسؤولية الدفاع عن قضايا

(١) ينظر، حوراني، الفكر العربي، فصل "جمال الدين الأفغاني"، ص ١٠٣–١٢٩.

المسلمين وتحقيق العدل بينهم. لكنه في الوقت نفسه عمل على منح فكرة الجامعة الإسلامية مضموناً تحرريًا يتجاوز حدود ما أراده السلطان العثماني؛ فقد انشأ صحيفة **العروة الوثقى** (التي أصدرها في باريس سنة ١٨٨٤م بالاشتراك مع تلميذه محمد عبده) منبرًا لنشر الوعي السياسي في الأمة. جاءت مقالات **العروة الوثقى** لتبلور أيديولوجيا الجامعة الإسلامية كحركة تحررية مناهضة للاستعمار، لا مجرد ولاء للعثمانيين. وبذلك منح الأفغاني فكرة الوحدة الإسلامية بُعدًا ثوريًا شكّل أساسًا مهمًا للحركات الإسلامية اللاحقة في مقاومتها للاستعمار[١] .

أما منهجه في التجديد، فقد أكّد الأفغاني على أن الإصلاح الحقيقي يعتمد على أساس ديني أصيل. كان يرى أن العودة إلى "حقيقة الدين" كفيلةٌ بإيقاظ وعي الأمة وتفجير طاقاتها. والإسلام عنده دين يُعلي من شأن العقل والعلم والوحدة، فلا تعارض لديه بين الإيمان والتفكير الحر. لذا رفض الأفغاني بشدة ما دعا إليه بعض المفكرين العرب آنذاك من تقليد أعمى للنموذج الغربي أو اعتناق الأفكار العلمانية التي تُقصي الدين عن الحياة العامة؛ واعتبر ذلك انهزامًا حضاريًا. في المقابل، دعا إلى الاجتهاد في فهم النصوص على نور العقل ومقتضيات العصر. وقف الأفغاني في وجه الجمود الفكري، وانتقد العلماء الذين حرّموا العلوم الحديثة بدعوى مخالفة الدين. ففي نظره لا تعارض بين الإسلام والعلم الحديث؛ بل كان ازدهار الحضارة الإسلامية قرين الانفتاح على العلوم والفلسفة (كما في العصر الذهبي). ومن ثمّ فإن تبنّي العلوم الحديثة والتقنيات النافعة من صميم تعاليم الإسلام لتحقيق القوة والمنعة. وعلى صعيد نظام الحكم، أيّد الأفغاني مبادئ الشورى والعدل، بل ونادى مبكرًا بضرورة تقييد استبداد الحُكّام عبر نصح الأمة لهم ومشاركتهم الرأي.[٢]

يمكن القول إن الأفغاني سبق عصره في كثير من الأفكار الإصلاحية: فقد انخرط في نشاط صحفي وثقافي دولي داعيًا المسلمين في مصر والشام والهند وإيران وغيرها إلى اليقظة من "سبات الجمود" لمواجهة الخطر الاستعماري المحدق. وبفضل جهوده بات يُنظر إليه كـ«باعث النهضة الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي»، وكأستاذٍ تتلمذ على يديه أو تأثر بفكره نخبة من رواد الإصلاح من مشارقة ومغاربة. ومن بين هؤلاء تلميذه المباشر الإمام محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي

(١)ينظر، العروة الوثقى (١٨٨٤؛ أعداد متفرقة)؛ حوراني، الفكر العربي، ص ١٠٣–١٢٩.

(٢)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١١٤–١٢٩.

ت(١٩٠٢)، ومصطفى كامل ت (١٩١٨)، وشكيب أرسلان ت (١٩٤٦)، ورشيد رضا ت (١٩٣٥)، وغيرهم ممن واصلوا حمل شعلة الإصلاح من بعده[١] .

المطلب الثاني: محمد عبده (١٨٤٩–١٩٠٥) – تجديد الفكر الديني والإصلاح المتكامل

يمثّل الإمام محمد عبده ت (١٩٠٥) الحلقة المركزية في سلسلة النهضة الإسلامية الحديثة، إذ انتقل بفكر الأفغاني التحرري إلى طور التطبيق المؤسسي والإصلاح التدريجي داخل المجتمعات الإسلامية ولا سيّما مصر. تأثّر عبده بشدة بأفكار أستاذه الأفغاني، ولا سيّما إرجاع سبب تخلّف المسلمين إلى ضياع صفاء العقيدة والانحراف عن منهج السلف الصالح. لكنه مضى أبعد من ذلك بتحليل تاريخي: حيث رأى أن بدايات الانحطاط تعود – في رأيه – إلى العصر العباسي عندما اختل نظام الحكم ودبّ الفساد، مما ولّد طغياناً عسكريًا وسياسيًا أضعف الدولة. على كل حال، اتفق عبده مع الأفغاني في الجوهر: الإسلام دين النهضة، وما أصاب الأمة من تأخر فمرجعه سوء فهم الدين أو سوء تطبيقه عبر عصور الاستبداد والجمود[٢] .

انخرط محمد عبده مبكرًا في مشروع الأفغاني النهضوي؛ شاركه في إصدار **العروة الوثقى** بباريس (١٨٨٤م)، ثم عاد إلى مصر ليواصل مهمة الإصلاح بعد حقبة المنفى التي أعقبت فشل الثورة العرابية (١٨٨٢م). وقد حمل عبده لواء تجديد الفكر الديني من موقعه كعالم أزهري ومفتٍ للديار المصرية (١٨٩٩م). ويمكن تلخيص مشروعه في نقطتين مترابطتين: تنقية العقيدة الإسلامية مما شابها من خرافات وتقاليد جامدة، وتحرير العقل المسلم من قيود التقليد. أعلن الإمام هدفه بوضوح قائلًا: «يهدف مشروع الإصلاح... إلى تحرير الفكر من قيد التقليد... واعتبار الدين ضمن موازين العقل البشري...»؛ وهو تأكيد على أنّ الإسلام "دين العقل والعلم والإيمان والعمل"، وأن النهضة رهينة بإحياء الاجتهاد وتحكيم العقل في فهم النصوص[٣] .

---

(١)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١٠٣–١٢٩.

(٢)ينظر، حوراني، الفكر العربي، فصل "محمد عبده"، ص ١٣٠–١٦٠.

(٣)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١٣٠–١٦٠؛ محمد عبده، الأعمال الكاملة (تحقيق محمد عمارة)، ج٢، ص ٣١٨–٣٢٠.

وإلى جانب التجديد الفكري، اضطلع محمد عبده ببرنامج إصلاح عملي متكامل يشمل السياسة والاجتماع والتعليم واللغة. في السياسة دعا إلى إقامة حكم دستوري يقيّد استبداد الحاكم ويضمن حقوق الشعب، ساعيًا إلى إحياء الشورى بصيغ عصرية (مجالس نيابية). وفي الاجتماع والأخلاق نادى بالعدالة الاجتماعية ومكافحة الاستغلال، ودعم الوقف الأهلي والتعليم الخيري. أمّا التعليم فكان محور جهوده: أدخل العلوم الحديثة في مناهج الأزهر، ودعم إنشاء مدارس مدنية، ودعا إلى تبسيط العربية لتكون أداة للعلم والفكر الحديث بدل الأساليب المتكلفة[١].

خلاصة القول، جمع محمد عبده بين العالم المجدد والمصلح الاجتماعي. سعى لإعادة بناء الثقة بين التراث والحداثة عبر تأكيد عقلانية الإسلام وانفتاحه على العلوم، مع التحذير من الانبهار غير النقدي بالغرب أو القطيعة مع الدين. وقد ترك بصمة عميقة على جيل كامل من المثقفين والحركيين؛ ووصفه رشيد رضا بأنه "روح الدعوة" الإصلاحية، واعتُبر رائدًا لتيار السلفية الإصلاحية الذي مزج بين العودة للمنابع الأولى ومنجزات العصر[٢] .

المبحث الثالث: رشيد رضا والمنار – الخلافة والاجتهاد والتربية في مطلع القرن العشرين

محمد رشيد رضا (١٨٦٥–١٩٣٥) ونشأة مدرسة المنار

برز الشيخ محمد رشيد رضا كأحد أهم تلامذة الإمام محمد عبده، لكنه ما لبث أن أصبح زعيمًا فكريًا له رؤيته الخاصة في مسار الإصلاح الإسلامي. وُلد رضا في بلاد الشام (بلدة القلمون قرب طرابلس الشام) وتأثر منذ شبابه بأفكار الأفغاني وعبده من خلال ما وصله من أعداد **العروة الوثقى** . سافر إلى مصر سنة ١٨٩٨م ليلتقي بأستاذه عبده وينضم لحلقته الإصلاحية. وفي العام نفسه أسس مجلته الشهيرة **المنار** التي صارت المنبر الأهم لبثّ أفكار الإصلاح الديني والاجتماعي على امتداد العالم الإسلامي. استمرت **المنار** في الصدور ٣٧ عامًا (١٨٩٨–١٩٣٥)، وشكّلت مدرسة فكرية قائمة بذاتها عُرفت بـ"السلفية الإصلاحية[٣] ."

(١)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١٣٠–١٦٠؛ محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج٢، مواضع متعددة.

(٢)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ١٣٠–١٦٠؛ المنار (مقالات الرثاء والتقويم بعد ١٩٠٥؛ انظر الفهارس).

(٣)ينظر، حوراني، الفكر العربي، فصل "رشيد رضا"، ص ٢٢٥–٢٢٩؛ المنار (المجلدات الأولى)؛ فهرس المنار.

تميزت تجربة رشيد رضا بأنه واصل منهج أستاذه عبده مع توسيع نطاق الاستشهاد بالسنّة وإحياء الاجتهاد. وبعد وفاة عبده (١٩٠٥م) استقلَّ بقيادة الدعوة الإصلاحية، وذكر في مقدمة تفسير **المنار** أنه خالف أستاذه في بعض التفصيلات مع اتفاقهما في المقاصد. حملت **المنار** رسالة إصلاحية شاملة: تنقية العقيدة من البدع، نشر العلوم الحديثة، معالجة القضايا الاجتماعية، الدعوة للوحدة ومقاومة الاستعمار ونقد الاستبداد. وقد حققت انتشارًا واسعًا، ووصلت إلى الهند وجاوة والشام والمغرب، وبنى رضا حولها شبكةً عالميةً من المراسلين والتلامذة[١] .

١. الخلافة ووحدة الأمة في فكر رشيد رضا

شهدت سنوات نشاط رضا سقوط السلطنة العثمانية (١٩١٨) ثم إلغاء الخلافة (١٩٢٤)، فكان من أعلى الأصوات المنادية بإحيائها. وبلغ جهده ذروته في كتاب «**الخلافة أو الإمامة العظمى** » (1923)الذي بدأ سلسلة مقالات في **المنار** .(1923–1922)قدّم فيه تأصيلاً شرعيًا للفكرة، ورأى وجوب نصب خليفة يحفظ وحدة الأمة ويقيم الشريعة، ودرس تاريخ النظام وتحولاته، محذّرًا من الفراغ السياسي والرمزي الذي خلّفه الإلغاء[٢] .

اشترط رضا أن يكون الخليفة مجتهدًا متمكنًا في علوم الدين، وأن تقوم بجانبه هيئة من **أهل الحلّ والعقد** (العلماء والقادة) لمراقبته وتقويمه وعزله إن حاد عن العدل والشريعة؛ كما أكد مبدأ الانتخاب ووجوب الطاعة ما دام الحكم بالعدل. وفي حال تعذّر المثال الأكمل، طرح رضا مفهوم «**خلافة الضرورة** »بوصفها صيغة مرحلية تُبقي مشروع الوحدة حيًّا[٣] .

وقد خلّفت أطروحة رضا أثرًا واسعًا في الجدل الإسلامي حول الدولة الحديثة، وأسّست لجملة من تصورات الإسلام السياسي لاحقًا (الدولة والشريعة والهوية الجامعة). وتُبرز الدراسات الحديثة صلة هذا التنظير بخيارات الحركات الإسلامية في القرن العشرين[٤] .

---

(١)ينظر، رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى، القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٢٣، ص ٢٩–٣٠، ٥٨، ٩٠، ١٣٥؛ حوراني، الفكر العربي، ص ٢٣٤–٢٣٧.

(٢) المصدر السابقة، ص٢٤٨.

(٣)ينظر، رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى، ص ٢٩–٣٠، ٩٠، ١٣٥؛ حوراني، الفكر العربي، ص ٢٣٤–٢٣٧.

(٤)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٣٤–٢٤٤.

٢. تفعيل مبدأ الاجتهاد ونقد الجمود

حمل رشيد رضا لواء إحياء الاجتهاد الفقهي والفكري، وانتقد التقليد المذهبي والجمود، ومارس الاجتهاد عمليًا عبر **فتاوى المنار** في قضايا معاصرة (الدستور، المصارف، التأمين...). وقد لخّص موقفه من تعطيل الاجتهاد بأنه يفضي إلى إهمال العقل وقطع طريق العلم والحرمان من استقلال الفكر. ودعا إلى العودة إلى الكتاب والسنّة بفهم السلف مقروناً بمناهج الاستدلال الحديثة، وانتقد غلوّ التصوف والبدع التي رأى فيها عائقًا للنهضة[١] .

كما نادى بالاجتهاد الجماعي والمؤسسي بعد سقوط الخلافة، مؤيدًا عقد مؤتمر إسلاميٍّ عامٍّ يضم نخبة العلماء للنظر في القضايا المستجدة. ورغم تعثّر المحاولات المبكرة، فإن فكرة التشاور العلمي المؤسسي غدت ركيزةً في مقاربات الإصلاح المعاصرة[٢] .

٣. التربية والتعليم كأدوات للنهضة

أولى رضا التربية والتعليم اهتمامًا عمليًا خاصًا باعتبارهما "رافعة القوة والاستقلال". تابع مسيرة أستاذه في إصلاح مناهج الأزهر، وخطا خطوة أجرأ بتأسيس **دار الدعوة والإرشاد** في القاهرة (١٩١٢) لتخريج دعاة يجمعون بين علوم الشريعة والعلوم الحديثة، ولتكوين جيل قادر على مجابهة التبشير والاستعمار الثقافي. وقد أفاد من رحلته إلى الهند في العام نفسه لبناء صلات تعليمية وجمع تبرعات دعمت مشاريعه التربوية[٣] .

المبحث الرابع: شبكات التلقّي والتأثير – أثر الأفغاني وعبده ورشيد رضا في الحركات اللاحقة

١. الامتداد العالمي لفكر النهضة الإسلامية

لم يقف تأثير الروّاد عند حدود بلادهم أو حقبتهم، بل انتشر عبر شبكات تواصل فكرية في العالم الإسلامي. فجال الأفغاني بين الهند ومصر والشام وغيرها، وترك دائرة واسعة من التلامذة، بينما اتخذ

(١)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٣٦–٢٤٤؛ أعداد المنار ١٩٢٢–١٩٢٦.
(٢)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٢٩–٢٤٤؛ المنار (فتاوى وأبحاث؛ انظر الفهرس).
(٣)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٢٩–٢٣٦.

تأثير عبده طابعًا مؤسسيًا وتعليميًا بحكم موقعه ومشروعه الإصلاحي، وأمّا شبكة تأثير رضا فكانت الأوسع بفعل **المنار** وامتدادها الجغرافي والزمني إلى الهند وجاوة والشام والمغرب وغيرها[١] .

ويُشار غالبًا إلى تأثير رضا على التنظيمات الإسلامية الحركية (وعلى رأسها الإخوان المسلمون)، وعلى مسارات التعليم والتربية والنقاشات الفقهية والفكرية في العالمين العربي والإسلامي، بما في ذلك بلاد الشام ومصر والعراق والشرق الأقصى[٢] .

٢. تقويم ختامي لمسار التأثير

واجهت حركة الإصلاح أيضًا انتقادات وتحديات: اتُّهم بعض أعلامها بالتساهل أو الممالأة، ولم يتحقق مشروع الخلافة، وحلّت الدول القومية محلّ الوحدة السياسية. ومع ذلك، يقاس أثرهم بما أحدثوه من مسار فكري ومؤسساتيٍّ غيّر وعي المسلمين بذواتهم، وأعاد وصل الدين بالعقل والعلم والعمل، وهي معادلة ما زالت حاضرة في خطاب النهضة الإسلامي حتى اليوم[٣] .

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن رواد الإصلاح الإسلامي في عصر النهضة (١٨٦٠–١٩٣٥) قد نجحوا في صياغة خطاب تجديدي يزاوج بين الأصالة والمعاصرة لخدمة نهضة الأمة. فقد دعا الأفغاني إلى الاعتصام بالوحدة الإسلامية والعودة إلى صفاء التوحيد الأوّل كشرط لمقاومة الاستعمار، وجاء محمد عبده ليؤكد إعمال العقل والاجتهاد ويثبت أن الإسلام دين العلم والمدنية مع إصلاحٍ تعليميٍّ واجتماعيٍّ ملموس، ثم استلم الراية رشيد رضا فبلور مشروعًا متكاملاً لإحياء الخلافة والشورى وأطلق من خلال **المنار** حركة وعيٍ عابرةٍ للحدود.

واتّسم خطاب الجميع بسمات مشتركة: الرجوع إلى ينابيع الإسلام الأولى، والنقد الصارم للممارسات المتخلّفة، والانفتاح الواعي على مكتسبات الحداثة ما لم تُناقِض الأصول. وقد تجسّدت هذه الرؤية بحسب مقتضيات كل مرحلة: الجامعة الإسلامية لدى الأفغاني، والإصلاح المؤسسي لدى عبده،

---

(١)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٢٣٤–٢٤٤.

(٢)ينظر، حوراني، *الفكر العربي*، ص ١٠٣–١٦٠، ٢٢٥–٢٤٤؛ *العروة الوثقى*؛ *المنار*.

(٣)ينظر، حوراني، الفكر العربي، ص ٣٤١–٣٤٩ (الخاتمة/الأفق الفكري)؛ رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى (مختارات).

وإحياء الكيان السياسي والاجتهاد التشريعي لدى رضا. وهي مبادئ لا تزال تُلهِم مشاريع الإصلاح الراهنة .

قائمة المصادر

- ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨–١٩٣٩**، ترجمة كريم عزقول، بيروت: دار النهار، ١٩٨٦.
- محمد رشيد رضا، **الخلافة أو الإمامة العظمى**، القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٢٣ (سلسلة مقالات *المنار*).
- محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، جمع وتحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٢–١٩٨٩ (خاصة: ج٢، ص ٣١٨–٣٢٠).
- نيكي ر. كدّي، **استجابة إسلامية للإمبريالية: الكتابات السياسية والدينية لجمال الدين الأفغاني**، بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٨ (طبعات لاحقة) .
- **العروة الوثقى**، باريس، ١٨٨٤ (إصدار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده). نسخ رقمية: مكتبة الكونغرس/الأرشيف المفتوح .
- **مجلة المنار** (1898–1935)، القاهرة: محمد رشيد رضا (مجلدات متعددة). أرشيفات مصوَّرة وفهارس .
- Ikrame Ezzahoui, “Rashid Rida: A ‘Passage to India’… and Kuwait,” *Arabian Humanities*, no. 17 (2023). OpenEdition Journals
- Ana Belén Soage, “Rashid Rida’s Legacy,” *The Muslim World* 98 (2008): 1–20. ResearchGate

References

•Albert Hourani, Arab Thought in the Renaissance ١٧٩٨–١٩٣٩, translated by Karim Azqoul, Beirut: Dar al-Nahar, .١٩٨٦

•Muhammad Rashid Rida, The Caliphate or the Great Imamate, Cairo: Al-Manar Press, ١٩٢٣(Al-Manar Articles Series.(

•Muhammad Abduh, The Complete Works, compiled and edited by Muhammad Amara, Cairo: Dar al-Shorouk, ١٩٧٢– ١٩٨٩(particularly: vol. ٢, pp. ٣١٨–.(٣٢٠

•Niki R. Kuddy, An Islamic Response to Imperialism: The Political and Religious Writings of Jamal al-Din al-Afghani, Berkeley: University of California Press, ١٩٦٨(later editions.(

•Al-Urwat al-Wuthqa, Paris, ١٨٨٤(ed. Jamal al-Din al-Afghani and Muhammad Abduh). Digitized copies: Library of Congress/Open Archives.

•Al-Manar Magazine (١٨٩٨–١٩٣٥), Cairo: Muhammad Rashid Rida (multiple volumes). Photographic archives and indexes.

•Ikrame Ezzahoui, "Rashid Rida: A 'Passage to India'… and Kuwait," Arabian Humanities, no. ١٧(٢٠٢٣). OpenEdition Journals

•Ana Belén Soage, "Rashid Rida's Legacy," The Muslim World ٩٨(٢٠٠٨): ١–٢٠. ResearchGate